الأرض والنبات «نظرة علمية وخواطر إيمانية»

مُقَدِّمَة

التربة هي الطبقة الخارجية المجواه والمفتتة من سطح الكرة الأرضية، وهي المهد الطبيعي الذي تنمو فيه وعليه النباتات، والتربة والماء وهما المصدران الرئيسيان لزراعتنا، مثلما هما أيضًا مصدران لبيئتنا الطبيعية، ويتوقف إنتاج محصول جيد على مجموعة من العوامل منها العوامل الأرضية أو عوامل خصب التربة مثل توفر العناصر الغذائية والماء الميسر وهواء التربة وخلو التربة من المواد الضارة أو السامة، ومنها العوامل الوراثية الخاصة بالنبات، ومنها العوامل المناخية كدرجة الحرارة والرياح والرطوبة الجوية ومقدار الطاقة الإشعاعية للشمس، وغيرها. والعوامل سابقة الذكر هي التي تحدد إنتاجية الأرض من الناحية العلمية البحتة، وقد تختلف إنتاجية نفس الأرض رغم تساوي ظروف التربة والزراعة والعوامل المناخية؛ لأن الخالق العظيم فضل خلقه على بعض في الرزق، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ [النحل: ٧١]، فالزيادة أو النقص في الرزق له حكمة من الله سبحانه وتعالى؛ لأنه يعلم ما يصلح عباده، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقد يوسع الله لغير المؤمن رزقه في الدنيا؛ لأنه ليس له نصيب في الآخرة، أما المؤمن الصالح فإن الله يؤتيه أجر عمله الصالح في الدنيا وفي الآخرة أيضًا، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١]، وفي كثير من آيات القرآن الكريم أخبرنا الله تعالى ممتنًا على عباده فيما مكن لهم، من أنه جعل الأرض قرارًا وجعل فيها رواسي وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب ينزل منه الماء لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش وأسباب يكسبون بها ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل

الشكر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

فهل تفكرت أيها الإنسان في طعامك، وهل فكرت من القادر على أن يخرج كل هذه الأصناف من الطعام للإنسان والحيوان، المختلفة في اللون والطعم رغم نموها في تربة واحدة وسقيها بماء واحد، وأود هنا أن أسأل علماء التربة والنبات ومن يمارس عملية الزراعة، هل أنت خلقت الأرض أو التربة أو الماء أو البذرة التي تغرسها في التربة، أم أن الله هو الخالق لكل شيء، بكل تأكيد الله هو الخالق، كما بين سبحانه في قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢].

ويجب التأكيد هنا على أنه لا تعارض بين العلم والدين، فمن الممكن استعمال العلم والعقل لفهم بعض أسباب زيادة أو نقص إنتاجية التربة من محصول معين، ولكن ليس للحكم على صحة نص قرآني أو حديث صحيح، فإذا عجز العلم والعقل عن تفسير أو فهم شيء معين، فلابد لنا أن نوقن أن هناك قدرة أكبر من العلم والعقل وهي مشيئة الله رب الأسباب، فليست كل الأمور تخضع للأسباب؛ لأن هناك ما لا يعلمه المخلوق فقط يعلمه الخالق سبحانه وتعالى، فلنا أن نأخذ بالأسباب في عملية الزراعة لزيادة الإنتاج، وعلينا أن نستمر في الأبحاث العلمية لمعرفة أسرار الأرض والنبات، وعلينا أن نسعى في الأرض للحصول على الأرزاق، ومع ذلك فلابد أن نعلم أن سعينا لا يجدي علينا شيئًا إلا أن ييسره الله لنا، فالسعي في السبب لا ينافي التوكل على الله رب الأسباب، وسبحانه وتعالى القائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]

والسبب الرئيسي لتفكيري في وضع هذا الكتاب هو التأمل في آيات الله في الأرض والنبات، فعلى الرغم من توفر كثير من المعلومات العلمية عن الأرض والنبات، فأحيانًا لا يستطيع علماء الأرض والنبات فهم ظاهرة معينة، فهنا علينا أن نعلم أن الله هو الزارع

وليس البشر، كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٥]، وفي الكتاب سوف أتحدث عن الأرض والتربة والنبات من الناحية العلمية، مع الإشارة إلى خواطر إيمانية في آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في هذا المجال، مع التركيز على بعض الموضوعات مثل إحياء الأرض الميتة والحرث والرزق والإنبات والزروع وغير ذلك من المفاهيم المرتبطة بالأرض والنبات، وأنا هنا لا أفسر آيات القرآن، ولكن فقط أحاول فهم معنى الآيات المرتبطة بالأرض والنبات، فهما من أعظم آيات الله وأسراره في الكون والتي تدل على عظمة وقدرة الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

وادعوا الله أن يلهمني صحة الفهم وحسن القصد والنية، وإنه لوجب أخلاقي أن أذكر هنا أنني لا أعتقد أن كل شيء اكتبه هو حقيقة مطلقة وأبدية؛ وذلك لأن العلم في تطور مستمر؛ ولأن القرآن الكريم لا تنقضي أسراره ولا يخلق من كثرة الرد، ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]،

وفصول الكتاب مقسمة على ثلاثة أجزاء: الأول يتحدث عن الأرض والتربة، والثاني عن النبات، والثالث عن موضوعات مرتبطة بالأرض والتربة والنبات.

وأدعو الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون في ميزان حسناتي وأن ينفع به من يقرؤه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

الأستاذ الدكتور/ **شعبان محمد إبراهيم**